صغيرة

وقفت على « الرصيف » تحت « لمبة » المقهى .. صغيرة .. سمراء .. ضامرة ، يرتعش كيانها فى انتفاضات متسعة من شدة الرطوبة .. وقطرات المطر تتحدر متوالية من فوق رأسها وتبلل حاجبها .. مدت يدها اليمنى تنثر المياه من فوق شعرها .. بينما يدها اليسرى تشد فوهة « كور الصفيح » المعلق بحبل من « الدوبارة » تحت ابطها حتى لا ينفد الرداد داخله ! ..

ثم أمالت رأسها بحذر واطلت داخل المقهى وحاستها بطرات متثاقلة .

وللمرة التاسعة فى حياتها احساسات مكتئبة ! ..

بقلم
عبد العال الحمامصى

المقهى خاليه من « الزبائن » تماما . كأنما اقلع عن التدخين كل روادها ! .. غريبة ! .. فى مثل هذا الوقت عادة تكون المقهى مليئة بالزبائن المتأثرة فى ارجائها ! ..

لابد أن « جوده » صبى « الأسطى سلام » سائق عربة النقل قد سبقها ! .

كل الظروف اليوم تعاكسها ! ..

نفضت رأسها لترذل قطرات المطر التى تتحلل شعرها .. وما زالت الرعشة تسرى فى جسدها .. ومن جديد انطلقت نظراتها الطائرة تتفرس تحت المناصد . وبين أقدام الزبائن بدون أن تجرؤ على خطوة داخلية واحدة !! .

« المعلم سالم » صاحب المقهى يجلس بجوار « البوفيه » عملاقا يزرع الخوف بنظراته المخيفة التى يرهبها الميدان بأسره !! .

وارتد بصرها الى الكور تحت ابطها .. فعاودت أساريرها بالأسى !!

ان حصيلتها اليوم من بقايات السجائر لا تكاد تصل الى نصف المطلوب منها أن تلتقطه ..

مهما كانت الظروف .. لابد أن يكتظ الكور الى حافته .. والا فالعذاب فى انتظارها ! ..

هذا ما تعرفه جيدا .. لابد أن يمتلىء الكور تماما .. كل مطلع شمس تسمع كلمات التحذير والتهديد بالعقاب لو عادت بالكور ناقصا .. آثار العقاب فى كل موضع من جسدها تذكرها بأن النقص معناه اضافة المزيد من هذه العلامات !! .

وقصتك الليلة سـوداء يا ريتشي .

« مندوهة » مصاطبة مسك لأتك بالأمس اندمجت مع أطفال الحارة فى لعبة « العريس والعروسة » وسيبت انهـا بجوار باب بيت « أم السـعد » حتى رفسه حمار زوجها فى بطنه وكاد يودى بحياته .. وقصتك سوداء .. ستجدها مندوهـة فرصة .. الليلة .. وتخرج بطنها كدماتا زرقاء فوق جسدك !! .

بعد الظهر عندما أسندت رأسها الى جدار « طاحونة الخواجا برنابا » لتريح قدميها من تعب السير المتواصل بحثا عن البقايا .. لم تكن تتوقع أن اليوم سـوف يدهمها .. فلا تصحو الا و « الشيخ القرنى » يؤذن لصلاة العصر من فوق سطح « زاوية العـارف بالله القرطبى » ..!!

لم تنم بارادتهـا .. قصت ليلتها بالأمس ارقه سـاهرة .. خوفا من انتقام مندوهة .. لما حدث لابنها !! .

واندفعت الهواجس تسـيطر مشاعرها ..

انها تعرف جيدا .. ما سوف يحدث لها ! .. عندما تعود الى « العشة » بهذا القـدر الذى جمعته من المقـاهى .. والشوارع .. والأرصفة !! .

لدرجة أنهـا تفضل أن تبات فوق رصيف « المـدان » .. فى العراء .. والصقيع .. والحشرات .. ومعاكسات « صبيان موقف عربات الأجرة » على أن تعود الى هناك .. ليتورم صدغها من صفعات أبيها الأعمى .. وشراسـة مندوهة امرأته .. صاحبة « السوابق » جريحة السـجون .. « فتوة » حارة القبة !! .

كفت السـماء نهائيا عن اسـقاط مطرها .. وتحركت لتغادر الرصيف ، وهى تقرأ « الفاتحة » فى سرها للشيخ « القرطبى » ولى الله صاحب الكرامات موصلة اليه رجـاء النبى أن يصحها مندوه .. وتركه .. لتعثر على « كوم » من العلب بعـد القراع الكبير فى كورها !! .

ولكنها عادت تتوقف من جديد عندما رأت « عمار أفـندى » يخرج علبة سجائره ويقـدم منها واحدة للأستاذ « جوزيف » أمين « شـونة بتـك التسليف » الذى يلاعبـه « الطاولة » ويشعل لنفسه واحـدة أخرى !! .. بينما «مدحت» الصغير ابن عمار افندى يضع صغارته فى فمه ويخرج منها اصواتا تروق زبائن المقهى فيداعبونه بابتسامامهم المشجعة ! ..

وتنبه « المعلم سالم » لوجودها أمام باب المقهى ، فسحب « سـيم الشـيشة » من فمـه .. ونـرفع اهتز شاربه . وطهرت « كشرته » الرهيبة .. وزمجر يصرخ فيها :

ـ انت .. يا مقصـوفة الرقبة .. فورى من عندك .. طول النهار قدامى بخلقتـك .. اللى تقطع الخميرة من البوت ..

ويصق بجوار رجل المصـدة ..

ثم أردف وقد ازدادت كشرته تقطيبا :

ـ « تحركى .. يا وجه النكد .. دائما تحجلين أمام المقهى مثل أبو العسـاد أمامك البلد واسعة .. جاءتك داهيه ..»

انها لا تعرف لماذا يكرهها المعلم سالم لدرجة أنه لا يطيق رؤياها داخل المقهى

او خارجه .. لماذا يمقتها .. وهي لا تتردد ابدا في قضاء اي حاجة يطلبها منهـا ... لماذا يمقتها الناس .. وتتشاءمون من رؤياها .. ما ذنبها اذا كانت دميمة بشعة الوجه ؟. «مندوهة» امراة اسمها .. تقول بانها « طالعة » لأمها .. ولا تستطيع هي أن تصدق ذلك .. فهي لم تر امهـا ابدا .. ماتت .. بعد ما وضعتها مباشرة .. وهذا ما يحمل الناس يتشاءمون من رؤيتها .

« لولا انها « فقرية » ما كانت اكلت امها لحظة مولدها » .

دائما تقول لها مندوهة هذه العبارة !!

وتورت الصغيرة بعيدا عن نظرات المعلم سالم خلف ضلفة الباب وبينما باقي عمار افندي والأستاذ كمال بالنهايتين متمنية ان يقذفا بهما خارج القهى لتحبب شمائل المعلم ورعيته ..

ومن ثقب ضلفة الباب ظلت تراقب مصير السيجارتين .. عمار افندي يجلب انفاس السيجارة بعصبية وانفعال كدأبه دائما عندما تكون اللعب ليس في صالحه .. عمار لا يطيق الهزيمة ابدا .. رغم انه غالبا هو الذي يدفع ثمن « الطلبات » سواء كان هو الغالب ام المغروم !!

ثم وضع السيجارة على حافة المقعدة .. واستغرق في تفكير عميق ونظراته تتطاير بين « حانات » الطاولة وافشطتها

يا عيني .. لقد احرقت السيجارة انامل « مدحت » الصغير .. عندما امتدت يده لتمسك بها في غفلة من والده ..

وصعب عليها دموع الصغير .. وهي تتغرس في وجهه المورد .. وشعره الفاحم الطويل وقد تدلت خصلات منه فوق جبهته .. وملابسه الأنيقة .. ما أجملها .. كل ما فيه رائع ونظيف !!

وراودت نفسها امنية في ان تمسح له دموعه .. أن تلمس بيدها شعره .. ان تمر بها فوق نعومة خده .. ستغسل يدها من رماد النقانيات قبل ان تفعل حتى لا تلوث نصاعة وجنته !! .

والتفت في عينيها كآبة عندما وجدت نفسها تقارن بين نفسها وبينه .. هو .. أكثر من يد امتدت لتمسح ظهره .. وتمسح دموعه .. وتهدهده .. ! حتى « عكاشة » الجرسون اندفع خارج القهى واشترى قطعة حلوى ليسكت بها نحيبه .. وهي .. عندما يدوسها حمار .. او تصطدم عمدا برجل في الطريق .. تمتد الأيادي لتضمها .. وتنطلق الألسنة تلعنها ! .

وغادر المعلم سالم القهى مشمرت بالارتياح .. وانتزعت نفسها من وراء الضلفة .. ودلفت الى الداخل بخطوات متوجسة في البداية .. ثم في جرأة عندما وجدت عكاشة لا يعترض على دخولها ..

ووجدت بعض النقانيق بجوار ارجل المقعدة التي يجلس عليها عمار افندي .. واحربات كانت تحجبهن المقاعد .. وقبل ان تشرع يدها للالتقاط باغتتها يد ثقيلة تعرفها جيدا .. وأراحتها في

عنف ثم اندفعت داخل الكور واختطفت اقلب ما به ! . .

والتفتت اليها فهقهة الصغير ابن عمار افندى سعيدة بطرافة ما حدث ! . . . دائما يحدث هـــذا . . واحتاج العبط المقهور كيانهـــا . . لو كانت ولدا . . لعرفت كيف تؤدب « جـــودة » ضمن « الأسطى علام » وتنتقم لكل ما تفعله بها . . لو كانت حتى فى مثل بدانته !! انهـــا لا تعرف من اين يخرج لها جودة باستمرار كانهـــا تنشق عنه الأرض لمناغاتها ويغتصب اقلب ما تكون انفقت يوما فى جمعه من نقايات . . ولا يتورع عن ضربها لو اعترضت أو بدرت منهـــا مقاومة . .

وفوق هذا يستمدىعليها صحابه من صبيان موقف عربات الأجرة يلاحقونها بالأحجار الصغيرة . . وكلماتهم الموحشة التى تعايرها بزوجة ابيها مشيقة كل الرجال !! . .

وسارت مقهورة متخاذلة . . تضرب الارض بخطواتهـــا . . وقـــد انطلقت خواطرها تتخيل ما سوف يقع لها عندما تعود بهـــذا القليل الذى بقى لديها . . والذى لا يمكن ان يفى بشراهة والدها فى التدخين !! .

سوف يمسك بها من شعرها وينهال عليهـــا صفعاته وركلاته . . وستترى مـــدوهة لتضربها فى كل موضع من جسدها . . وتتهمها بانها قضت يومها فى « الصعرنة » مع عيـــال الموقف . . وانها من صعرها « طالعة مايصة » لأمها . . وكلما اشتدت ضرباتهـــا عنفا طلب منها الأعمى ملعن « الأبيون » المزيد من الضربات . . لتربيها !!

ومن خلال هواجسها وجدت نفسها تفكر فى الصغير ابن عمار افندى . . لماذا ليس لها مثل حياته ؟ . . لماذا ؟! .

« والكمش » السؤال فى اعماقهـــا مهروما . . ثم ضـــاع فى دوامة قلقها ومخاوفها . . !

النهار يخبو نوره . . وليست امامها فرصـــة . . كل شىء ضدها . . حتى « الشـــيخ القرطبى » عاصـــب عليها . ولم يستجب لصراعتها والفاتحـــة التى قرأتها له ليمنحها سره وبركاته !! .

وتوقفت تنحب فى شـــيخ لاهث منقطع . . تراودها فكرة عـــدم العودة . . ومن بعيد لمحت احدى النقـــابات تلقط انفاسها فمسحت دموعها براحة يدها وواصلت سيرها . . وبطرانها الحادة المترصدة تذرع عرض الطريق !! .